منزلة النقد الأدبي الحديث في تونس

من خلال بعـــض أعلامه

خالد ا لغربي- تونس

تمهيـــد:

بمتابعتنا للعديد من البحوث والدراسات المختصّة في موضوعات النقد ونقد النقد، المهتمّة بالأدب العربي وقضاياه، لاحظت تركيز أغلب الباحثين على قضايا بعينها لم تتجاوز الحديث عن حضور هذا النقد أو غيابه، أزمته أو نمائه، تأصيله أو تحديثه، خصوصياته أو انبتاته، هويّته بين التشكّل والانسلاخ.وفي هذا الرصيد الهائل من البحوث الجادّ منها والهزيل لم نعثر إلاّ على دراسات محدودة تعرّف بتجارب النقد الأدبي في بعض الأقطار، معلّلة اختيارها باسم شمولية النقد وطابعه العربي الذي به يختصّ، ممّا نجم عنه غياب هذه الصورة المعرفية الدقيقة والشاملة عن هذا النقد في بعض هذه الأقطار. وجعل الناقد العربي الشمولي يجهل في أغلب الأحيان أعلام هذا القطر أو ذاك ومبدعيه.

وبناء على كلّ ما أجملنا، سعينا في هذا المبحث إلى رصد مدار معلوم عليه قامت حركة النقد الأدبي في تونس متّخذين من التسلسل التاريخي خيطا ناظما لتطوّر مسار هذا النقد.وما ذكْر بعض الأعلام نماذجَ إلاّ من باب التعريف بجهودهم في تطوير حركة النقد الأدبي العربي وما أفرزته من رؤى واتجاهات، دون نفي أو إقصاء لجهود ناقدين آخرين يضيق المجال للحديث عن منجزهم بدءا من حسن حسني عبد الوهاب في كتابه "مجمل تاريخ الأدب"1 ، وزين العابدين السنوسي في كتابه "الأدب التونسي في القرن الرابع عشر" الصادر سنة 1927، في طبعته الثانية " ومرورا بمحمّد الفاضل بن عاشور في مؤلّفاته "الحركة الأدبية في تونس" الصادر سنة 1956 و"أركان النهضة الأدبية"2، و"تراجم الأعلام" 1970، ووصولا إلى كتابات محمّد صالح الجابري وأبي زيّان السعدي ورشيد الذوادي وأحمد مموّ وأبي القاسم محمّد كرو وجون فونتان وغيرهم.ولهذه الكتابات قيمة تأسيسية لا تخلو من إشارات ذكيّة ولمحات نقدية وصفية أو تاريخية لافتة رغم تفاوت جهد أصحابها النقدي والتصنيفي والتحليلي.

والناظر في حركة تقويم النقد في تونس، يلاحظ ندرة الدراسات التي تعنى بنقد النقد، سواء في حقل الدراسات الجامعية أو في الأعمال النقدية العامة.ولعلّ ذلك يعود فيما نعتقد إلى ما نلاحظه من هوّة بين كثافة النصوص الإبداعية المنشورة، شعرا وسردا ومسرحا 3، بصرف النظر عن قيمتها ، والمؤلّفات النقدية المحدودة المشتغلة عليها .

فالنقد الأدبي في تونس، منذ مطلع القرن الحالي مرورا بطوره المزدهر في العقد الثالث والرابع من هذا القرن وصولا إلى تجربة التحديث في شتى فنون الآداب منذ الستّينات لم يكن من حيث الكمّ وفيرا وفرة ما هو عليه في بلاد المشرق، و لم يكن الاهتمام بالأدب التونسي في مضمار النقد إلاّ وليد انتشار الصحف والمجلاّت والجمعيات الأدبية والثقافية، فكان النقد بهذا الاعتبار رهين مواضعتين: ترتبط الأولى بطبيعة الكتابة في الصحف والمجلاّت، و لا تخلو هذه الكتابات من طابع المهاترات والمجاملات. وتتعلّق الثانية بقدرة هذه الحركة على إنتاج نقاد، يملكون منظومة نقدية.

و لم يكن تلازم النقد والإبداع، في حقيقة الأمر، إلاّ مرهما بظروف تاريخية وسياسية أحيانا، ولذلك قلّما خرج أولائك الكتّاب الذين ذاع صيتهم وانتشر عن فلك أدب الإخوانيات،كاشفين عن انتماءاتهم السياسية والأيديولوجية والمحلّية. وهكذا يمكن القول إنّ الحافز على دراسة الأدب التونسي لم يكن في أغلب الأحوال وليد حوافز علمية وبحثية، فلم يترك بذلك أثرا بيّنا، وظلّ قيد الصحف والمجلاّت، كما لم ينبثق عنه بحكم طبيعته التي ألمعنا إليها جدل بنّاء يحفّز الأجيال اللاحقة على اقتحام أسوار هذا الأدب وغربلة جيّده من رديئه.

● مقدّمات في تاريخ النقد الأدبي في تونس

إن رمنا تحديد معالم حركة النقد الأدبي في تونس من جهة حضورها الزمني وصيرورتها أمكن القول:

1- إنّ هذه الحركة تمتدّ جذورها إلى العقد الأوّل من هذا القرن، وقد برزت بظهور المدارس والجمعيات والصحف والمجلاّت 4.

2- إنّ حركة التأليف الأدبي سابقة لحركة النقد الأدبي،إذ اقترنت مرحلة البدايات في التأليف بالإصلاح السياسي والفكري والتعليمي منذ نهاية القرن 18.

3- إنّ من سمات حركة التأليف عدم تخلصها من التقليد، فظلّت مواضيعها متداخلة الأغراض في الفكر والأدب والسياسة.

4- إنّ حركة النقد الأدبي لم تبرز معالمها إلاّ منذ ما يصطلح عليه بفترة ما بين الحربين وكان لزين العابدين السنوسي الدور البارز في تأسيس قواعد هذه الحركة من خلال المجلاّت التي أصدرها والتي أسهم في تحريرها5 .

ومن الأسماء التي سطع نجمها في مجلّة "العالم الأدبي "نذكر محمّد الحليوي و محمّد البشروش.

5- إنّه يمكن القول ببروز نزعة علمية في النقد من خلال مجلّة "المباحث"6 (1938-1944) إذ ضمّت هذه المجلّة أصحاب الثقافة المزدوجة واستطاعت أن تنفتح على الشرق والغرب وأن تنتج أسماء سيكون لها أثر كبير في مجالي النقد والإبداع.

6- إنّ نهاية الخمسينات وبداية الستّينات قد تميّزت بظهور نزعات تجديد في مجال النقد والثقافة عموما ومثّلت هذه الفترة حلقة وسيطة بين لحظتين:الثلاثينات وبداية الأربعينات ثم نهاية الستّينات، حيث سينتعش النقد الأدبي في الصحف والمجلاّت من جديد. ومن المجلاّت التي سيكون لها دور أساسيّ في تغذية الحسّ النقدي الأدبي مجلّة الندوة(1953-1957) ثمّ مجلّة التجديد (فيفري 1961- نوفمبر 1962) ومجلّة الفكر (1965-1986).

7-إنّ نهاية الستّينات وبداية السبعينات يمكن أن تعتبر فترة تجذّرت فيها الرؤية النقديّة لمسائل الأدب من خلال الجدل الخصيب الذي دار في الصحف والمجلاّت 7.

I. لحظة الوعي النقدي في تونس، محمد الحليوي8 أنموذجا:

انبنت هذه اللحظة على ما يمكن تسميته بالنقد الارتسامي، ويعبّر هذا النقد عن حضوره في مختلف الأساليب الذوقية القائمة على المفاضلة المطلقة أو النسبية، وينشأ عن رصد خارجي للعمل الأدبي بحثا عن أثر هذا العمل في النفوس وفي الأذواق، وهو من الوجهة الإجرائية يتغذى من آليات النقد الكلاسيكي. ومن خصائصه ممثلا في بعض الأسماء كالحليوي وكرو أنّه يجمع بين منظومتين نقديتين:أولاهما تنغرس في النموذج الكلاسيكي، كما أسلفنا القول، وثانيهما تستأنس بالنهج الرومنطيقي الذي بدأ يترسّخ في نصوص بعض المبدعين مثل الشابي خاصة. ويعدّ محمّد الحليوي في هذا السياق من النقّاد القلائل الذين أثّروا في حركة النقد في تونس منذ العقد الثالث من القرن العشرين إلى نهاية الخمسينات منه.

وقد اعتبره الأستاذان توفيق بكار وصالح القرمادي في مقدّمة كتابهما "كتّاب من تونس "9بمعية البشروش ومحمد فريد غازي ضمن ثالوث من النقّاد طبعوا الحركة النقدية في تونس بطابعهم الخاص.

والناظر في كتابات محمّد الحليوي يلحظ مدى اهتمام الرجل بالأدب التونسي ومواكبته لهذه الحركة الأدبية، فقد عقد دراسات حول هذه الحركة، وعرّف بالكثير من أعلامها وتابع أعمال محمّد البشروش وصالح السويسي ومحمد شريبة وعز الدين كرباكة والشاذلي عطاء الله، فضلا عن شغفه بأدب الشابي شعرا ونثرا ومعاشرته لصاحب "إرادة الحياة" في الكثير من أطوار حياته الشخصية و الأدبية، ونظرا إلى ثقافته المزدوجة بالعربية والفرنسية، فقد ناقش العديد من الأطروحات الأدبية السائدة في المشرق العربي، وتصدّى، كذلك بروح العارف بالثقافات لشتّى ما يروّج من أفكار حول مفهوم الأدب والثقافة والتراث والسرقات الشعرية، وغيرها من المواضيع.والواضح من خلال أرائه النقدية انخراطه في ثقافة عصره وربطه الإحياء بالتجديد وانفتاحه على شتّى المعارف الفكرية والأدبية ووعيه بحركة النقد في تونس وأهمّ نزعاتها ومجالات انتشارها في الصحف و المجلات والكتب وبرامج الأدب في الإذاعة.

ويكفي أن نعود إلى فصل "النقد الأدبي في تونس "المنشور في كتابه "الأدب التونسي"10، حتّى نكتشف مدى وعي هذا الأديب بطبيعة النقد الأدبي في تونس ومدى إدراكه لحدوده وصيرورته ومجالات فاعليته، وهي مسائل تتعلّق بجوهر مبحثنا من جهة قدرة الناقد على طرح الأسئلة الممكنة ورصد الموجود في حدود تعيّنه ونشدان المأمول. إنّ طرح الحليوي لسؤال:هل عندنا نقد أدبي في تونس؟ إنّما يكشف عن وعي مبكّر بالغياب أو الحضور النسبي للنقد الأدبي في بلادنا قياسا إلى مختلف الأجناس الإبداعية مثل الشعر والسرد. وهو اعتراف صريح بأزمة النقد وانسداد أفقه في حدود الموجود من التجارب التأسيسية، وقد عبّر الحليوي عن أسباب الظاهرة قائلا: "وتتجلّى هذه الظاهرة، ظاهرة ندرة النقد في الأدب التونسي، في عدم وجود أيّ كتاب خاص بالنقد سواء منه ما يتحدّث عن مذاهبه وتيّاراته أو ما يتناول آثارا بعينها"11.

وما هذه الإشارة الدقيقة إلاّ تأكيد أنّ ما حصل من منجز نقدي إنّما مجاله الصحف والمجلاّت ومداره على آثار إبداعية نشرت وقضايا أدبية ظرفية طرحت طرحا عقيما في أغلب الأحيان.

فالنقد الأدبي في تونس بهذا المعنى ظلّ لصيق القضايا المطروحة خارج دائرته الإقليمية، مرتهنا بما ينتجه حقل الإبداع من نصوص. يقول الحليوي في هذا الصدد:"إنّ حركة النقد في تونس وإن لم تخل في طور التخصّص والتأليف، فإنّها قد اتّخذت مظاهر عديدة تبدو لنا حول حركات فكرية ظهرت، وآثار شعرية ونثرية نشرت ودراسات وفيرة لقضايا الشعر المعاصر والقديم.. أثيرت واستمرّ النقاش

حولها زمنا طويلا، كخصومة التجديد والتقليد وخصومة الشعر الحديث والالتزام في الأدب ومسألة الرمزية والواقعية وغير ذلك من المشاكل"12.

إنّ الواقف على خصائص النقد المنشور في الصحف والمجلاّت والمقوّم لآلياته وغاياته، يكشف مدى ما بلغه الحليوي من وعي نقدي أتاح له إدراك ما يعانيه هذا النقد من عوائق وما يقتضيه هذا النقد من حلول فهو القائل:" إنّ الذي يرجع إلى مجلاّتنا وصحفنا الأدبية الصادرة خلال السنوات العشر الأخيرة بالخصوص، يجد الاهتمام بالنقد يتزايد عاما بعد عام..والحقيقة أنّ هذه العناية لم تكن موجّهة إلى درس مناهجه ومذاهبه والتعريف بمدارسه وأئمّته في الشرق والغرب بصورة مركّزة بل كان الاهتمام منصرفا إلى مبادئ عامة منه أو مشاكل جانبية "13.

ونظرا إلى ندرة الكتب النقدية المختصّة في تونس في هذه اللحظة التاريخية، فإنّ محمد الحليوي وسّع من دائرة النقد مدركا أنّ بعض هذه المؤلّفات هي "أدخل في باب تاريخ الأدب أو الترجمة الشخصية منها في باب النقد الأدبي" وفي ذكر هذه الكتب رغم تنوّعها واختلاف مشاربها وأجهزتها المنهجية ما يكشف اندراجها فيما يمكن الاصطلاح عليها تجاوزا بمرحلة البدايات التي لا تخلو من بوادر فعل تأسيسي لم يكتب له الاكتمال.

ويعدّد محمّد الحليوي في هذا الصدد الكتب التي تختصّ بصفة النقد الأدبي ونزعاته فيذكر تباعا:

- كتاب الأستاذ الشيخ محمّد الفاضل بن عاشور، "الحركة الأدبية والفكرية في تونس".
- كتاب المرحوم زين العابدين السنوسي، "الأدب التونسي في القرن الرابع عشر".
- كتاب المؤلّف، محمد الحليوي، "مع الشابي"،
- -كتاب مصطفى رجب ،"شاعران: الشابي وسعيد أبو بكر" .

وقد ذكر كتبا أخرى لمصطفى الحبيب البحري حول الشابي وكتابين لمحمّد المرزوقي14.

إنّ الناظر في الأحكام التي وصف بها محمّد الحليوي هذه المؤلّفات يكتشف ما تنطوي عليه من رغبة في تجاوز النقد الارتسامي. يقول محمد الحليوي :"والذي يلفت النظر في هذه الحركة النقدية هو أن أغلب القائمين بها من كتبة النقد الذاتي التأثّري الذي لا يعتمد فيه الناقد على نهج معيّن ، بل يعتمد على ذوقه الشخصي وما يتركه العمل الأدبي في نفسه من أثر هذا المذهب في النقد هو الغالب على نقّادنا على اختلاف أمزجتهم وتنوّع ثقافتهم. منهم من يفضّله عن وعي واختيار، ومنهم من يكتبه طبيعة واندفاعا مع ذوقه الخاص. أما النقد السائد أو الموضوعي الذي يعتمد فيه على أصول ثابتة ومناهج مرعية أو يخضع فيه الناقد الأثر إلى مقاييس مذهبه، فقد اتّجهت إليه الأنظار منذ اتبعه الأساتذة

الجامعيون الذين درّسوا أصوله في الجامعات الأوربية وبنوا عليه أعمالهم التي تقدّموا بها لنيل الدرجات العلمية "15.

–الحليوي بين النقد التطبيقي ونقد النقد

من الملاحظات التي يمكن إبداؤها في شأن تجربة الحليوي النقدية التفاوت البيّن بين وعيه بخصائص النقد، أي قدرته على تقويم تجارب النقّاد الآخرين وصولا إلى مستوى التنظير أحيانا وبين عدم قدرته على بلوغ هذا المستوى في مجال التطبيق النقدي أي القراءة النقدية، فرغم ما أفاد به المكتبة النقدية من آراء حول الأدب التونسي خاصة والأدب العربي عامة، فإنّ كتاباته النقدية التطبيقية ظلّت من وجهة نظر القراءة الحديثة، ترسم خلاصها الحقيقي من تأثيرات مدارس الديوان و"أبوللو" والمهجر متراوحة في صميم رؤيتها بين بنيتين: احداهما ترفض في ظاهرها الانخراط في التجديد متحصّنة بقلاعها القديمة دون أن تدرك ما للتراث من إمكانات على بناء أدب أصيل مبتكر متفرّد، منغرس في خصوصيته، توّاق إلى تحقيق أفق إنساني أشمل، والأخرى بنية تعلن انعتاقها من الجمود وقدرتها على شقّ طريقها نحو الحداثة بمحاكاة النص الآخر المترجم أو المقروء في لغته، بل وقد يصل الأمر بها إلى تبنّي مقولات التجديد والتجاوز، كما جاء على ألسنة بعض روّاد الحركات الأدبية في المشرق تماهيا مع لحظة مسكونة بالتوتّر. وهكذا، فقد يخرج هذا النقد عن سياقاته المعرفية إلى سياقات الخصومات النقدية والحماسة المفرطة في الدفاع عن الموقف وردّ كل تصوّر مختلف ردّا لا ينهض على معقولية الخطاب، وإنّما على السباب وتبرئة الذمّة الشخصية.

والراصد لبعض دراسات الحليوي المتنوّعة حول الشابي يلحظ ميل هذا الناقد إلى المزاوجة بين النقد الوجداني ذي السمة الارتسامية والنقد الموضوعي الذي ينطلق من بعض ظواهر النصّ كالمعجم والعبارة والصورة في نزعة لا تخلو من بعد توثيقي بذكر حياة الشاعر والتوسّع في سرد سيرته، ولعلّ عملية المزج بين مختلف هذه المستويات والنزعات في السياق الواحد أحيانا يفضي بنا إلى الكشف عن هويّة النقد الأدبي في تونس في تلك الفترة، وهو نقد مازال متأرجحا بين شتّى التأثيرات المستحدثة والقديمة، لا يطول القراءة النافذة إلى الأعماق في مداها القصيّ، عيبه أن أصحابه ظلّوا في مدار توفيقي، دون أن يدركوا أن الإبداع تتقاسمه شروط مختلفة ومعقّدة، بعضها قد يكون ظاهرا في مستوى أيسر التأويلات، وبعضها قد يكون محتجبا في الذاكرة وأوجاعها، وفي اللغة وتاريخها، وفي المعرفة وعتباتها وفي إيقاع الحياة والموت.

إنّ طرح الأسئلة الحارقة، والتخلّص من سلطان صاحب النصّ مسألتان لم تكونا متاحتان للنقد التونسي في تلك الفترة ، بل إنّ هذا النقد وهو يتوغّل في مجال "العلمية" آخذا ببعض منجزاتها كما سيتّضح ذلك مع محمّد فريد غازي لم ينعتق كلّيا من هذه النزعة التوفيقية.

II. لحظة التأسيس العلمي للنقد: محمّد فريد غازي أنموذجا

يعتبر محمّد فريد غازي16من بين الأدباء التونسيين القلائل الذين جمعوا بين شتّى فنون الكتابة.فهو شاعر وقصّاص وكاتب مذكّرات ويوميات ودارس بحّاثة ومترجم للعديد من الأعمال والنصوص، فضلا عن كونه أهتمّ بدراسة الشعر والرواية والقصّة القصيرة **17** .

إنّ الناظر في بحوث محمّد فريد غازي ودراساته النقدية المنشورة حول الأدب التونسي سردا وشعرا يلحظ مدى إلمام الرجل بالمعرفة والثقافة الأجنبية والعربية على السواء، وقد توفّرت له من تجربة معاشرة الأدب والفكر في تونس وخارجها خاصية الباحث الفنّان الذي يروم تكسير الأنماط التقليدية منتصرا للجديد، منتهجا كلّ أشكال الخلاص الإبداعي التي ظهرت سيماؤها في أدب جيل جديد **18** ، "وقد عرف محمّد فريد غازي بغزارة إنتاجه طيلة حياته القصيرة الأمد، شأنه في ذلك شأن كتّاب وشعراء تونسيين آخرين مثل الشابي والطاهر الحدّاد وعلي الدوعاجي ومحمّد العريبي وصالح القرمادي وغيرهم ممّن مثّلوا إشراقة سرعان ما خبا نورها.."**19**

ويكفي أن نعود في هذا الصدد إلى محاضرة ألقاها على منبر"دار الجمعيات الثقافية "**20** لندرك وعيه العلمي بالنقد ومدى إحكامه للمناهج ووسائل البحث وقدرته الفائقة على إعادة النظر في الأفكار الجاهزة المتعلّقة بدراسة أدب مؤلّف ما. يقول في هذا الصدد "لابدّ في رأيي من أن نغيّر نظرتنا إلى الشابي والى الأدب التونسي في القرن العشرين، ولابدّ أن نفترض لكي نصل إلى الحقيقة افتراضات متعدّدة وأن نتّخذ منهجية علمية تختلف في عرضها للواقع.إن" المتأمّل النزيه والباحث المتجرّد ،لامناص له من أن يعترف بأنّنا لم نتقدّم تقدّما ملموسا في بحوثنا عن الشابي ، ولكن من النزاهة أيضا أن نعترف بأنّنا قد بدأنا نقترب من معرفة حياة الشاعر التونسي أبي القاسم الشابي".

إنّ تأكيده ضرورة انتهاج منهجية علمية في دراسة أدب الشابي يختلف عن المألوف من النظرات واعترافه الضمني أنّ الدراسات التي أنجزت حول هذا الشاعر لم تبلغ المستوى المأمول، وإن هي حاولت الاقتراب من حياة الشاعر ما يشير إلى تشكّل رؤية علمية للنقد تحاول أن تتزاح عن اتّجاه

النقد الانطباعي والارتسامي، محاولة توفير سبل جديدة في البحث، تنهض على التوثيق 21 ثمّ الوصف والتصنيف بناء على مقاييس نقدية علمية 22 .

هكذا يخلص في حديثه عن الدارسات التي تناولت الشابي بالدرس إلى القول "إنّنا لا ننكر المجهود الذي بذله أصحابها، لاسيما الدكتور عمر فروخ وأبو القاسم كرو والشاذلي بويحي ومحمّد الحليوي ومصطفى خريّف والطاهر قيقة، وإنّنا لنكبر عملهم وإخلاصهم وحميّتهم ولكن دراساتهم هذه دراسات ارتسامية تشبه كثيرا دراسات النقاد الارتساميين".

ولئن كان التعريف بمحمد فريد غازي لم يأخذ وسعه من الانتشار إلاّ في الثمانينات من القرن العشرين لجهود بعض الدارسين الذين اكتشفوا قيمته وعملوا معاول التنقيب والبحث في ما ترك من رصيد أعمال، فإنّ قراءتهم لما ترك من نقد وإبداع لا تخلو من تقارب أو تباعد في وجهات النظر.وعلى سبيل الذكر ،لا الحصر نذكر رأي محمد القاضي في الخصائص النقدية لمحمد فريد غازي من خلال قوله: "لم نلاحظ في كتاباته التزاما بالمنهج الاجتماعي في نقد الأدب، ولا بغيره، بل إنّه في نقده ذو آراء ثاقبة أحيانا ولكنّها لا تنصاع إلى مذهب نقدي مخصوص ولا تخضع لمنهج داخلي، فهو يخلط بين الملاحظات المتعلّقة بالشكل، والملاحظات المتعلّقة بالمضمون. على أنّنا وجدنا في هذه المقالات تحسّسا لمفهوم التناص، يتجلّى خاصّة في هذا النوسان المستمرّ بين الآثار قديمها وحديثها عربيّها وغربيّها." 23.

وإذا أردنا أن نقرّب صورة هذا الأديب من الأذهان –بما كان ينطوي عليه من تعدّد معرفي وحضور نقدي، علمي وثقافي– فمن الأفضل أن نستضئ بموقف عز الدين المدني الذي كان فيما نعلم من الذين ضمّتهم عشرته، وهو بأدبه وحياته عليم.فهو القائل متحدّثا عن موسوعية محمد فريد غازي ومنهجه العلمي"ولعل تكوينه الجامعي الفرنسي الصحيح العميق هو الذي أملى عليه أن يعنى بكل ظاهرة أدبية ويبحث في أدب كل كاتب وينقد كل فكر مبدع نقدا سمّي موضوعيا وعلميا حيث لا تفصيل للقيمة ولا للذوق ولا للجمالية ولا لاختيار حسب معايير الجودة!" 24.

ويؤكّد عز الدين المدني صورة هذه الدقّة العلميّة التي كان يتمتّع بها محمد فريد غازي في بحوثه الجامعيّة، بقوله:" الحدود الأخرى التي وقف عندها أيضا محمد فريد غازي هي دعوته الملحاحة إلى احترام المنهجية العلمية في تحرير الأطروحات الأكاديمية والدراسات والبحوث الأدبية والفنية الحرّة. وكان يؤكد عليها كلّ التأكيد، ويركّز، ويدعو، ويلحّ في الدعوة عقب الدعوة ويشرح، ويؤوّل، ويضرب الأمثلة..."25 . على أنّ هذا النهج العلمي الذي توخّاه محمد فريد غازي لم يسلم من طغيان النزعة الاستشراقية في قراءته للتراث الأدبي كما أكّد ذلك العديد من دارسيه.

والحاصل من خلال هذه الملاحظات التي اقتصرت على التعريف العام بتجربة محمد فريد غازي النقدية تشير إلى أنّ هذا الناقد الباحث كان علامة مهمة في تغيير مسار النقد الأدبي في تونس بما امتلكه من ثقافة مزدوجة لم تتح لغيره من قبله. وبهذا نعتقد أن الصلة وثيقة ، وإن خفيت، بين"غازي" وجامعيين سيواصلون تجسيد رؤيته الخاصة بالتركيز على دراسة الأدب التونسي والتعريف بأعلامه المهمّشين مثل علي الدوعاجي ومحمّد العريبي والبشير خريّف وغيرهم.نذكر من بين هؤلاء الجامعيين توفيق بكّار بوصفه ناقدا، دون أن يحجب عنّا ذلك جهود أساتذة آخرين اهتموا بهذا الأدب تدريسا وبحثا وتأليفا .

III. لحظة النقد الإبداعي:توفيق بكّار أنموذجا

يهدف هذا المبحث إلى رصد تجربة نقدية في مجال الشعر والشعرية، تنتمي إلى حقل، يمكن أن نصطلح عليه بالنقد الإبداعي، وإلى مدار يغتذي من مناهج قراءة النصّ تمثّلا لها ووعيا بخلفياتها الإبستمولوجية، مصحوبا بسعي دؤوب إلى تأصيل هذه القراءة عن طريق مساهمة الذات القارئة في إضفاء روح الخلق والإبداع على ما رسخ من قواعد بعض هذه المناهج أو ما ظنّ أنّه صار من ثوابتها.

وليس من اليسير ضبط آليات هذه المقاربة وتحديد جهازها المفهومي في مضمار النقد، لأنّها تنهض، حسب ما بدا لنا، على أسس بها تنبني، قوامها رِؤية جدلية بين النصّ وسياقه والنصّ وعالمه.

1-: في القراءة ومداراتها:

القراءة عند بكّار بعث حياة في المقروء ينطق النصّ الميّت ويحرّر الكلمات من قيدها والمعاني من أسرها، فتفهم وتدرك "باللسان والذهن والوجدان" وما هذا الثالوث إلاّ نتاج "تجارب شتّى وجودية واجتماعية وسياسية من حياة هذا العصر"[26].

وللنصّ سياقان بينهما جدل هو سرّ "ما به نقرأ:سياق القارئ في الآن وهنا وسياق كاتب النصّ الذي كان، ولا يكون إلاّ بفعل القارئ ينصت إلى النصّ ويصغي إليه بعقل منير ونفس مرهفة الإحساس.

ولقارئ النصّ وظيفة هي "أن يعيد إنتاج النصّ بتوليده من ذاته، كأنّه ابن ساعته" [27] وفي ذلك مقاصد سامية ومعان نبيلة يمكن حصرها في : [28].

1- شدّ مريدي العلم إلى أصولهم الثقافية وترسيخهم في هويّتهم الحضارية.

2- تزويدهم بالعلم وما به يجعلون التراث عيونا حيّة والهويّة بناء حركيا

3- تربية العقل وتهذيب النفس وإرهاف الحسّ

و لا تتحقّق "القراءة الخلاّقة "حسب تعبير بكّار إلاّ بمنهاج صارم من أوّل شروطه:

أ- معرفة المتكلّم من هو.

ب- معرفة المصطلحات التي تعي السياق فيحصل التوليد.

ومن محاذير القراءة، عند بكّار، ما تبيّن على لسانه في شرح المتنبّي أنْ تغرينا "فتنة النصّ" ولذّته فيكون تجاوب اللسان مع اللسان، لا مجازفة الكيان مع الكيان"29.

والحاصل من كلّ هذا، قراءة حلولية كيانية، يحصل فيها التبادل الحيوي، كأنّها لحظة التجلّي الصوفي " من أنفاسي يعيش النصّ وبأنفاسه أزيد أحيا نبضه من دفق دمي وبتوقيع قلبه يجري الدم فيّ، ولا يغّذّيني بروحه إلا ومن روحي قد أكل سويّا .."30.

بهذا نفهم أنّ جوهر فعل القراءة هو أن يتحوّل إلى حدث يذيب ما اختزلته الذات العارفة وما تمثّلته في الذات المتألّمة القارئة المصغية إلى ما يسري في جسد النصّ من دفق حيوي تنشئه اللغة وما وراء اللغة بمجازاتها وتراكيبها وأنغامها وأصواتها وأدواتها ومعانيها.

ومن هذا الفكر ونظامه، وهذا الشعر ومداراته، يمكن أن نصنّف القراءة في أعماله النقدية الشعرية إلى قراءات هي في جوهرها واحدة، وإن تعدّدت التسميات.

1- القراءة الجدلية الحلولية:

يقوم الفكر الجدلي أساسا على "نظرة كلّية للمعطيات المدروسة، رابطا بينها محلّلا طبيعة هذه الترابطات، دارسا جوهر الوحدة، مدركا تسلسلها وتناسقها وتصارعها، مستوعبا ميزاتها الخاصة وجوهرها العام"31.

من هذا الفكر وأنساقه، استمد الأستاذ بكّار قاعدة رؤيته للإنسان والعالم والنصّ، وعلى أساسه بنى نظام تحليله النصّي الذي به يمكن أن نستدلّ على منهج تفكيره وأنظمة معرفته وماهية فهمه للتاريخ الذي هو صيرورة دائمة ووضع خلاّق وبناء بين العناصر المتنافرة والمتجاورة، المتآلفة والمتباعدة في نسيج كلّي هو النص الأكبر في أعمق تعاريفه شعرية، ولعلّ من سمات هذه القراءة الجدلية تعريفه للنصّ بقوله:"النصّ الأدبي كيفما نظرنا إليه..كائن جدليّ.."32 .

والجدلية عنده جدليات في تحليله لبيت المتنبي، أفقية بين الكاتب والقارئ وعمودية بين أسفل النصّ وأعلاه..ومن كلّ محور تتناسل الجدليات..ومن خلال تحليلها المدقّق يولد ما أسماه النقّاد الفرنسيون "القراءة الحلولية".

وما الحلول إلاّ ذوبان في النصّ المقروء وذاته الكاتبة..ولا يتمّ هذا إلاّ بالمعرفة والمجاهدة والخبرة والقدرة على الإنصات بفكر ثاقب وعقل وقّاد وفصاحة في اللسان وقدرة على البيان، وكلّها من خصائص النقد الإبداعي، يأخذ من العلم بطرف ومن الشعر أو الفنّ بطرف آخر، وفي تمازج النقد بالفنّ حوار، دون أن يكون لأحد هما الغلبة، وإنّما يمتلئ الواحد بالآخر كيانا خصيبا ولا خواء.فكم حذّر بكّار وهو يدرس قصيدة بشّار من الإيحاء الأجوف والغموض المعتّم "يوهم بالامتلاء حتّى كأنّه باطن بلا ظاهر، وهو سطح بلا عمق.."33.

هكذا تسري الجدلية في نصوص بّكار النقدية، منهاج نظر ومذهبا في الفن والحياة، وما من نصّ إلاّ يخضع لباطن الرؤية، وما عناوين أعماله في السرد والشعر إلاّ خير دليل، فبين المغنى والمعنى، وبين الانكشاف والاحتجاب، وبين النغم والألم جدليات تفصح عنها لافتات العناوين وقد تستنبطها، فتجري في النصوص، بؤرة تفكير تصوغها شبكة من الثنائيات تتبادل التأثير صراعا وتكاملا.

2- القراءة التوحيدية:

وأوضح ما تتجلّى في شرحه لقصيدة "يا طائر البان" وتقوم على تجاوز ثنائية المعنى والمغنى إلى وجوه المعنى – مغنى، باستحداث علاقات جديدة بين الدوال والمدلولات تجعل نفس الأصوات، إذا تكرّرت في نصّ شعري ما خلقت تيّارا معنويا تحتيّا يجاريها، فتتولّد كاللغة الثانية من اللغة الأولى وفيها وبها"34.

ويرجع الفضل الكبير في استكمال عاصر هذه النظريّة إلى "جاكبسون" في محاضرة له عنوانها "الألسنية والإنشائية" (Linguistique et Poétique)،وبعد أن حلّل الأستاذ بكّار بنى الإيقاع والنحو والبلاغة كاشفا أوجه تشاكلها في قصيدة "يا طائر البان "يخلص إلى القول : "فالمغنى كالمعنى حركتان متعاقبتان مدّا وجزرا "35 ويضيف "أخشى أن يكون هذا القصيد قد استجاب إلى النظريّة التوحيدية، استجابة تفوق الحدّ "36ويحوّل الحكم الجزئي إلى حكم عام مبيّنا أنّ أغلب شعر الفحول يرتدّ إلى وحدة معنى –مغنى ،مستعرضا نماذج من مدوّنة الشعر القديم.

3-القراءة الحداثية للتراث:

ما من نصّ قديم إلاّ ويخضع في قراءة بكّار إلى جهازين من المفاهيم والمصطلحات:جهاز مصطلحي ينهل فيه من التراث النقدي ومرجعياته، كالجاحظ والجرجاني وابن قتيبة وغيرهم وجهاز له مرجعيات حديثة، متّصلة باللسانيات وعلم الأصوات وعلم النصّ والإنشائية البنيوية والتوليدية، عموما، وليس بينهما فاصل إلاّ ما يقتضيه مقام العلم الجديد وتذويب الجديد في القديم، والحاصل من

هذا إعادة إنتاج التراث النقدي بعين معاصرة، لا بواسطة التنظير له أو تمجيده وإنّما بتجريبه تجريبا خلاّقا واختبار قدرته على المداومة ومقاومة صروف الزمن، حتّى لتخاله منك إليك يحاورك عميق وجدانك وصريح لسانك..وكم ردّد بكّار وهو يشرح القصائد القديمة:"ليست هذه دعوة للقديم ضدّ الجديد، إنّما هي دعوة إلى اكتناه سر الشعر في القصيد القديم حتى نبدع قصائد جديدة يستمرّ فيها روح الشعر"37.

وقوله في سياق آخر "هذه إحدى محاولاتنا التي نسعى فيها إلى تجديد القراءة لنصوص التراث، وهي في الأصل تجربة مخبرية"38

وإذا كان بكّار يؤكّد الطابع الحداثي في قراءة القصائد القديمة، فإنّه يسعى- كلّما دعا النصّ إلى ذلك- إلى توظيف التراث النقدي في قراءة المحدث من القصائد، ومن هنا ينبثق النوع الرابع من القراءة.

4- القراءة التراثية للحداثي:

يتجلّى ذلك في دراسته لقصيد "لحن غجري"لدرويش، فبعد أن جال في الألحان والأوزان والأدوار، وفي سجلات المعاجم وأنظمة اللغة يخلص إلى القول "شعر حديث هذا ويصدي بأصوات القديم، إلى أوّل المعلّقات ينمى نسبه العريق، فيه وقوف واستيقاف، على "الأثر"، وبكاء بلا دموع"39.

إنّ منهج شرح نصّ حديث، عند بكّار لا يتعارض واستلهام سنن الكتابة التراثية القديمة، انطلاقا من أصول ثقافتنا في القول الشعري.بهذا الاعتبار، فمدار الشعرية واحد وإن اختلفت المقاييس، والتفريق لا يحصل لنا بين الشعر واللاشعر:فالشعر بخصائصه،إن كان كذلك ،مخترق أبدا سجوف العرضي والآني ولا تقتصر جدّته على الأشكال أو تنحبس في المعاني ،إنّه كلّ لا يتجزّأ،يعبّر عن جوهر الكيان ،متحوّل لا يربض على شكل من البيان أو قالب من الإيقاع أو غرض من الأغراض.

هكذا القراءة، إبداع أو لا تكون، إبداع نقد به نكون.

● على سبيل الخاتمة:

إذا كنّا قد حاولنا أن نلمع إلى بعض النماذج النقديّة المؤسّسة لحركة النقد الأدبي في تونس والمجذّرة لمداراته فإنّما لنفتح الطريق لدراسة نماذج أخرى في مضمار النقد بأصنافه، آملين أن نبلغ مستوى المقارنة الموضوعية بين مختلف تجارب النقد القطريّة التي هي جزء لا يتجزّأ من هويّة النقد الأدبي العربي بكلّ ايجابياته وعيوبه.ولعلّ اختلاف مناهل النقّاد العرب وتنوّعها بين المرجعية الفرنكفونية والأنجلوسكسونيّة و وبين التراث والحداثة من شأنه أن يثري المشهد النقدي ويغنيه، شرط التعامل

الواعي مع هذه المرجعيات، والقدرة على إعادة إنتاجها إنتاجا يتماشى مع خصوصياتنا المعرفية والحضارية ،دون اللهاث وراء التوفيقيّة أو الانبهار الأعمى أو الانجرار وراء محو الهويّة.

هكذا نتبيّن أنّ النصّ النقديّ المؤسّس لا يمكن أن يكون متأصّلا في زمنه إلاّ إذا تحصّن بهويّته:هذه الهويّة المتعدّدة والشاملة والمنفتحة على أوساع المعرفة قديمها وحديثها وعلى فعل الإبداع الحقّ الذي هو روح ما به نتجاوز قراءة ونقدا ونقدا على نقد.

الهوامش:

1- حسن حسني عبد الوهاب: "مجمل تاريخ الأدب"، ط2، المنار، تونس، 1968

2- محمّد الفاضل بن عاشور: "أركان النهضة الأدبية بتونس"، مكتبة النجاح، تونس1965" انظر كتابه: الحركة الأدبية والفكرية في تونس – الدار التونسية للنشر 1972

3-http://fr.f278.mail.yahoo.com/ym/Compose?YY=6627&y5beta=yes - _ednref5

تكفي العودة إلى كتاب "فهرس تاريخي للمؤلّفات التونسية لـــ"جان فونتان"، منشورات بيت الحكمة، 1986" لندرك الهوّة، إحصائيا، بين عدد المؤلّفات النقدية والكتابات الإبداعية بمختلف أصنافها بين السنوات 1955و1984، فقد أورد الباحث 78مؤلّفا في مجال النقد و147كتابا في الشعر و 70 رواية و25 مسرحية، فضلا عمّا ألّف في مجال الأقصوصة..

4 يمكن على سبيل الذكر، لا الحصر إبراز دور كلّ من المعهد الصادقي، وقد أنشئ سنة 1876 والمدرسة الخلدونية التي تأسّست سنة 1886 وقد تدعّمت هذه المكاسب منذ أواخر القرن بصدور الجرائد مثل جريدة الرائد التونسي التي صدرت سنة 1860 وقد أشرف عليها كلّ من محمود بكّار ومحمود بيرم التونسي ومحمّد السنوسي، وجريدة الحاضرة التي صدرت سنة 1888 وأشرف عليها ثلّة من الأدباء والمفكّرين وساهموا في تحرير موادها مثل سالم بوحا جب ومحمّد بن الخوجة وعلي بوشوشة والبشير صفر، ومن المجلاّت التي ظهرت نذكر مجلّة السعادة العظمى وقد صدرت سنة 1904 ومجلّة خير الدين سنة 1906. ولمزيد التوسّع انظر كتاب :

5- من بين المجلاّت نذكر مجلة البدر (1821-1823) و مجلّة العرب(1923-1924) وخاصة العالم الأدبي(1930-1936)

6 – مجلّة المباحث:مؤسّسها محمّد البشروش، أصدر عددها الأوّل في أفريل سنة 1938 وبوفاة مؤسّسها سنة 1944يكون قد صدر منها عشرة أعداد لتستأنف صدورها من جديد على يدي محمود المسعدي منذ سنة 1944 إلى سنة 1947 تاريخ توقّف صدورها. وقد مثّلت المجلّة منارة من منارات الصحافة التونسية في مرحلتيها المذكورتين، حيث امتازت بانفتاح على الثقافة الغربية وتحريك سواكن المبدعين والجامعيين.

7 – يمكن أن نذكر مجلّة الفكر (1955-1986) ومجلّة التجديد (فيفري1961-نوفمبر1962) ومجلّة الشباب (سبتمبر 1956-نهاية 1970) ومجلّة قصص (1966- مازالت تصدر إلى حدّ الآن) ومجلّة الثقافة التي صدر العدد الأوّل منها في 22جوان 1970 وانقطعت عن الصدور بعد بضع سنوات.ويمكن الإشارة إلى ما أسهم به الملحق الثقافي لجريدة العمل منذ 1969 في خلق جدل ثقافي حول مسائل التجديد وتجارب الكتابات الطليعية.

8 – محمّد الحليوي: ولد بمدينة القيروان يوم السبت 23 جمادى الثانية 1325 هـــ الموافق لـــ3 أوت 1907 وتلقى تعلمه الابتدائي بالمدرسة القرآنية ثم بالمدرسة الابتدائية، وفي عام 1924 التحق بمدرسة ترشيح المعلمين وتخرج منها عام 1927. أحرز على شهادة

المدرسة العليا للغة والآداب العربية في عام 1940 وباشر التعليم الابتدائي منتقلا بين مختلف جهات البلاد التونسية ثم استقر به المقام بالقيروان حيث انتدب للتدريس بالتعليم الثانوي.كانت تربطه بالشاعر أبي القاسم الشابي علاقة متينة وكانت لهما مراسلات نشرت تحت عنوان **رسائل الشابي**، له مؤلفات منها كتاب "**في الأدب التونسي**".توفي بالقيروان يوم الجمعة 28 رمضان 1398 هـ الموافق لـ غرة سبتمبر 1978 ودفن به

9- توفيق بكّار، صالح القرمادي: كتاب من تونس، منشورات سندباد (بالفرنسية) ص19

T .Baccar et S. Guermadi : Ecrivains de Tunisie, Paris, (1981)

10 - محمّد الحليوي:الأدب التونسي، الدار التونسية للنشر، ص130

11 - المرجع نفسه ص54

12 - المرجع نفسه ص 54

13 - المرجع نفسه ص62

14 - المرجع نفسه ص 68

15- المرجع نفسه ص 71

16 - اسمه محمد فريد غازي وعرف باسم فريد غازي منذ1948.ولد في غرة فيفري 1929 بتونس العاصمة،وهو أصيل جزيرة جربة تلقّى دروسه في المرحلة الابتدائية بمدرسة خير الدين الابتدائية إلى حدود جوان 1941ثمّ انتقل في مرحلته الثانوية إلى معهد كارنو حيث قضى سنته الأولى ليتحوّل بعد ذلك إلى المعهد الصادقي، فنال ديبلوم الصادقية سنة 1948،.اشتغل بالتدريس في التعليم الابتدائي منذ سنة 1946 بعد انقطاع وعودة إلى الدراسة، وبانتهاء السنة الدراسية 1945-1950 سافر إلى باريس واستقرّ هناك تسع سنوات حيث تحصّل على الإجازة سنة 1956 ثم أنجز أطروحة دكتورا الدولة حول ابن المقفّع سنة 1957 وناقشها سنة 1958،رجع إلى تونس سنة 1959 ودرّس بمعهد الدراسات العليا ثم دار المعلّمين العليا وشارك في الحياة الثقافية والعلمية بجهد نشيط وحماسة بينة

17- اهتمّ محمد فريد غازي بالشعر العربي القديم في إطار بحوثه أو مقالاته بالدوريات التونسية والأجنبية، وبعض أعماله عدّدها الأستاذ الزمرلي في مداخلة ألقاها في أعمال الملتقى الأوّل فريد غازي، جربة 7/6/5 سبتمبر 1987 والمنشورة ضمن كتاب نشر دار صامد سنة 1987

18 - ظهر هذا الجيل وارتفع صوته بحلول الستّينات من خلال مستويات الإبداع والنقد مرورا بمجلّة المباحث في نهاية الأربعينات وصولا إلى تجربة مجلّة التجديد، كما تجلّت في بروز أصوات إبداعية مثل عز الدين المدني وصالح القرمادي والبشير خرّيف،

19 - محمّد فريد غازي: النزعة الإنسانيّة في مؤلّفات ابن المقفّع، تعريب رشيد الغزّي، مراجعة وتقديم وتحيين محمود طر شونة نشر اللجنة الثقافية بجربة وبلدية جربة حومة السوق، ط1، فيفري 2005

20- هذه المحاضرة منشورة بمجلّة اللغات العدد 2 السنة 1، ص ص 11/8 وفي كتاب جامع لعديد المقالات أنجزه أبو القاسم محمّد كرو بعنوان "دراسات عن الشابي، الدار العربية للكتاب، 1984"

21 - يمكن أن نذكر على سبيل المثال، لا الحصر اهتمامه بيوميات أبي القاسم الشابي

22 - انظر كتاب محمد فريد غازي: Férid Ghazi:Le roman et la nouvelle en Tunisie, maison Tunisienne de l'édition, 1970

23 - -محمّد القاضي: محمّد فريد غازي ناقدا قصصيّا، أعمال الملتقى الأوّل ص46

24- عزالدين المدني: أضواء على أدب فريد غازي في تونس، ورقات، جريدة الصحافة، تونس، 20 ماي 2005

25 – المرجع نفسه
26 – توفيق بكار :شعريات عربيّة ،دار الجنوب للنشر ،ط1، 2000 ، ص 107
27 – المرجع نفسه ص 107
28 – المرجع نفسه ص 107
29 – المرجع نفسه ص108، بتصرّف
30 – المرجع نفسه ص 108
31 – خالد الغريبي:الوحدة والتناقض في رواية المستنقع لحنّا مينة، دمشق، 1995ص19
32 – شعريات عربية، ص 105،(باختزال)
33 – المرجع نفسه ص51
34– المرجع نفسه ص 21
35– شعريات عربية ص33
36– المرجع نفسه ص34
37– المرجع نفسه ص 35
38– المرجع نفسه ص 104
39– المرجع نفسه ص152